الشعر في العصر الأموي

للشعر العربي خصائص ومزايا يتميز بها باختلاف العصور ، ولذلك صنفه النقدة والرواة أصنافاً وقسموه الى أقسام هي : شعر الجاهلية ، وشعر المخضرمين ، وشعر الإسلاميين ، وشعر المحدثين . ولكل قسم من هذه الأقسام طابع خاص يظهر عليه جلياً . والشعر في العصر الأموي هو القسم الثالث ، أي شعر الإسلاميين الذين ولدوا في الإسلام ولم يدركوا الجاهلية ، كالفرزدق وجرير والأخطل .

تطمئن النفس الى صحة الشعر الأموي ، لأن شعراءه والحوادث الباعثة على نظمه ، والرجال الذين قيل فيهم ، حقائق تاريخية لا يتسرب الشك اليها ، فضلاً عن حفظه وتدوينه قبل أن يطول عليه العهد ، ويتقادم عليه الزمن ؛ وأكثر ما ضاع منه ، ضاع بعد تدوينه لا قبله .

والشعر في العصر الأموي ، أفضل منه في العصر الجاهلي ، لأن العرب انفسحت لهم آفاق جديدة ، ورأوا أنواعاً جديدة من الحياة في الأقطار التي فتحوها ، وتهذبت لغتهم ببيان القرآن ، وأصبحوا سادة كثير من الأمم ، وآمنوا بأنفسهم أنهم هداة العالم وقادته ، وتطلعوا الى مثل أعلى لم يكن لهم به عهد في الجاهلية .

هذا المثل الأعلى صوره لنا شاعر في العصر الأموي اسمه مالك بن الريب التميمي ؛ كان مالك هذا شاباً فارساً من أجمل الناس وجهاً وأحلاهم حديثاً وأحسنهم ثياباً ، له زوج جميلة وطفل وطفلة وأبوان شيخان ، وله أصحاب وصواحب يألفهم ويألفونه ، ويسحرهم بفتوته ومروءته وحسن حديثه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رأى مالك يوماً في بادية البصرة ـ حيث يقيم ـ جيشاً آتياً من الشام ووجهته خراسان ، وعلى رأسه سعيد بن عثمان بن عفان عامل معاوية على خراسان ، فانضم الى ذلك الجيش متطوعاً ؛ فلما شاع خبر تطوعه بكت زوجه الفتاة ، وتعلق به طفلاه ، وتشبث به أبواه الشيخان ، وتشفع اليه أصحابه بصواحبه اللواتي خوفنه الموت في الغربة البعيدة . فزوى وجهه عن كل هذه المغريات ، ومما ييسره الى المثل الأعلى ، وذهب الى خراسان مع الجيش الفاتح ، وأصيب هناك ، وبقي أياماً بعد إصابته تفيض مع نفسه أبياتٌ من الشعر يصور بها كل ما ذكر ، نورد منها قوله :

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى ... وأصبحت في جيش ابن عفّان غازيا
فلله دَرّي يوم أترك طائعاً ... بنيّ بأعلى الرَّمتين وماليا
ودَرُّ الظباء السانحات عشيةً ... يخبرن أني هالكٌ من ورائيا
ودَرُّ كبيريّ اللذين كلاهما ... عليّ شفيقٌ ناصحٌ ما ألا ليا
ودَرُّ الهوى من حيث يدعو صحابه ... ودَرُّ لجاجاتي ودَرُّ انتهائيا

هذا ما لا عهد للشعر العربي به من قبل في أيام الجاهلية ، نراه متمثلاً في الشعر الأموي . ولئن امتاز العصر العباسي بأنواع النثر ، فلقد خص العصر الأموي بالشعر .

كثر الشعر في العصر الأموي لكثرة بواعثه ، فقد كان عصراً بفيض بالحياة من أوله الى آخره ، مملوءاً بالحوادث الجسام ؛ فتوح لم يفتح بها على غيرهم من الأمم ، وأحداث فيما بينهم عظيمة ، فمن مقتل عثمان ، الى وقعة الجمل ، الى وقعة صفين ، الى وقعة مرج راهط ، الى مقتل مصعب بن الزبير فعبد الله بن الزبير ؛ وثورات الخوارج لا تهدأ حتى تشب . فكأن نفوس العرب حينئذ لشدة الحياة المتقدة فيها مشاعل تضيء ما حولها وتحرق نفسها ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكن مدد النور فيها لا ينفد . والشعر ثورة نفسية يشبها بعض هذه البواعث أو ما ينشأ عنها من الأمور ، فكيف بها كلها .

والشعر في العصر الأموي يمثل الطبع العربي والخيال العربي والبيان العربي ، بعد أن انفسحت أمامه آفاق جديدة بالإسلام وبالفتوح وبالحوادث الداخلية ، شأنه شأن الدولة الأموية التي كانت عربية في جميع مناحيها ، لا تزيدها الحوادث إلا نمواً وقوةً ونضارة . سما به الإسلام الى المثل العليا ، ونفضت عليه الفتوح ألواناً جديدة ، وصقلت الحضارة حواشيه ؛ ولكنه بقي محتفظاً بجوهره ، عرَّب ولم يتعاجم ، ونقل ولم ينتقل ، ضمن أسلوب الفصحى وبيانها .

وكان خلفاء بني أمية عناية عظيمة بالشعر ، يرتاحون لسماعه ، ويطربون إليه ، ويرفعون من قدر الشعراء ، ويغدقون عليهم العطايا ، ويتخذون منهم دعاةً لهم ولسياستهم وتوطيد خلافتهم ، وقلَّ من خلفاء بني أمية من لم يقل الشعر ، فمعاوية من أكثرهم شعراً ، ولكن شهرته بالسياسة والدهاء والحزم طغت على شهرته بالشعر ، وابنه يزيد مشهور بالشعر وله ديوان ؛ ولمروان بن الحكم شعر ، أما عبد الملك فقد كان ناقداً بصيراً وأقواله في الشعر والشعراء يعتمد عليها الرواة والنقدة ويبنون عليها أحكامهم ، وله شعر ؛ ولعمر بن عبد العزيز شعر ، وهو الذي سنَّ للشعراء شعر الحكمة والصلاح والتقوى ، وليزيد بن عبد الملك شعر ، أما الوليد بن يزيد فقد اشتهر بالشعر أكثر من كل شيء ، وهو إمام الشعراء في الخمريات . ولقد كانت قصور هؤلاء الخلفاء مألف الشعراء ومهوى أفئدتهم . ونبغ من البيت الأموي عدا الخلفاء كثير من الشعراء كعبد الرحمن بن الحكم وخالد بن يزيد وأم حكيم وغيرهم .

ولقد كان للخلفاء الأمويين أثر ظاهر في توجيه الشعراء وجهات خاصة يقتضيها الفن أو الحياة الحضرية ، فضلاً عن النزعات السياسية والميول الشخصية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

استأذن مرةً وافد على معاوية ، فلما وقف بين يديه ، قال له معاوية : حاجتك يا أخا العرب ، فقال : مدحة حبرتها لك يا أمير المؤمنين . فقال له معاوية : أما إذا شبهتني بالحية والعَود والكبش ، فلا حاجة لي بمدحتك ، ولك جائزتك .

وقال يزيد مرة لجماعة من الشعراء في مجلسه : عجبي لكم معشر الشعراء في الشام ، يقف أحدكم على الطلل البالي فيستنزف شعره في وصفه ، وعندكم تدمر وفيها ما فيها من تماثيل ومحاريبَ وتهاويل هي أحق بالوقوف والوصف ، تمرون بها كاليكم أو العمي .

وما يدريك لعل الوليد بن عبد الملك طلب الى النابغة الشيباني أن يصف الجامع الأموي ، فنظم قصيدة مدح بها الوليد ووصف فيها الجامع وصفاً هو غاية في الحسن والروعة قال[1] :

... فيه الزبرجد والياقوت مؤتلقٌ ... والكلس والذهب العقيان مرصوفُ
ترى تهاويله من نحو قبلتنا ... يلوح فيها من الألوان تفويفُ
يكاد يعشي بصيرَ القوم زبرجُه ... حتى كأنَّ سواد العين مطروفُ
وفضة تعجب الرائين بهجتُها ... كريمها فوق أعلاهنَّ معطوفُ
وقبة لا تكاد الطير تبلغها ... أعلى محاريبها بالساج مسقوفُ
لها مصابيح فيها الزيت من ذهبٍ ... يضيءُ من نورها لبنانُ والسّيفُ
فكل إقباله[2] ـ والله زينه ـ ... مبطن برخام الشام[3] محفوفُ
في سُبرة[4] الأرض مشدود جوانبه ... وقد أحاط بها الأنهار والريفُ
فيه المثاني وآيات مفصلةٌ ... فيهنَّ من ربنا وعدٌ وتخويفُ

(١) ديوان نابغة بني شيبان ص ٥٣ .
(٢) إقباله : ما استقبل منه .
(٣) في الأصل : (الشام) ولعل الصواب ما اثبتناه ، فالشام : عروق الذهب والفضة في الحجر وهو أقرب في هذا المقام .
(٤) سبرة الأرض : جوفها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعمر بن عبد العزيز منع الإذن للشعراء إلاّ اذا استلهموا الرحمن لا الشيطان ، فظهرت أولية شعر التقوى والصلاح والزهد ، وعفت ألسنة الشعراء مدة خلافته ، وصار كثير عزة وعدي بن الرقاع وجرير فيما مدحوه به أشبه بالنساك الزهاد ؛ وظهر في أيامه شاعر لا يشبه بقية الشعراء هو سابق قاضي الرقة ، قصر شعره كله على الحكمة والوعظ والزهد .

والوليد بن يزيد هو الذي جعل الخمريات فنّاً متميزاً ومذهباً أخذه عنه كل من أتى بعده من الشعراء حتى اتهم أبو نواس بسرقة كثير من شعر الوليد .

والمتصفح للشعر في العصر الأموي يتبين سلامة طبع الشعراء ورقة نفوسهم وصدق شاعريتهم ، وصحة بواعث الشعر عندهم ، وحسن مواقفهم الشعرية . فقد كانوا يهتاجون لسجع الحمائم :

سجعت حمامةُ حنتْ بليلٍ فما هجتِ العشية يا حماما

ولحنين الإبل :

وحنّتْ قلوصي آخر الليل حنةً فيالوعةً ما هاج قلبي حنينها

وهبوب الرياح :

إذا هبّ عُلْوِيُّ الرياح وجدتني كأني لعلوي الرياح نسيبُ

ولمع البرق :

أرقت للبرق يخبو ثم يأتلقُ . يخفيه طوراً ويبديه لنا الأُفُقُ

ولجريان السيل :

جرى السيل فاستبكاني السيل إذ جرى وفاضت له من مقلتيَّ غروبُ

وللضحى ورونقه والليل ونجومه وشهبه والسحب وانهمارها .

ولا يفسرون الحال التي تأخذ الشاعر ، والهزة التي تنتابه ، والأريحية التي يجدها ، والنشوة التي تسري فيه ، في مثل هذه المواقف الشعرية ، إلا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

انفصالاً عن هذا العالم المادي ، واتصالاً بعالم غير مرئي ، هو عالم الشعر الذي تعزف به الجن ، وتتراءى فيه عرائس الشعر ؛ ومن هنا جعلوا لكل شاعر نحيّاً أو رئيّاً أو صاحباً من الجن يلقنه الشعر ، وهو الذي يعرف عندهم بشيطان الشعر . والفرزدق أوسع الشعراء الأمويين تخيلاً لهذا العالم ، وملابسةً له ، فقد كان اذا استعصى عليه الشعر يركب ناقته ويهيم في الأودية الخالية ، وربما بات ليلته كلها في واد أو سفح يستلهم الجن ، ويقول في الفترة بعد الفترة : «أخاكم أخاكم ، أجيبوا أخاكم أبا ليلى» وقصيدته الفائية التي أولها :

عزفت بأعشاشٍ وما كنتَ تعزفُ وأنكرتَ من حدراء ما كنتَ تعرفُ

بنت ليلة من تلك الليالي الشعرية . وكان الفرزدق يتخيل للشعر إلهين عظيمين من الشعر يسمي أحدهما «الهوبر» والآخر «الهوجل» الأول يوحي الطيب من الشعر ، والثاني يوحي الفاسد . وكأن هذا الخيال الثنوي دبّ اليه من عقيدة الفرس الثنوية فى إلهي الخير والشر أو النور والظلمة .

وكأن ألفة الفرزدق لعالم الجن عقدت أواصر الصداقة بينه وبين إبليس ، فاستمرت صحبتهما ـ بإقرار الفرزدق ـ تسعين سنة ، ثم انفرج ما بينهما حتى علت سن الفرزدق وأصبح غير أهل لصحبته ، فهجا إبليس بقصيدة يقول فيها :

أطعتك يا إبليس تسعين حجةً فلما انقضى عمري وتمّ تمامي

رجعتُ إلى ربي وأيقنتُ أنني ملاقٍ لأيام المنون حِمامي

وهناك شاعر آخر اسمه عامر الجرمي ، ارتفعت الكلفة بينه وبين صاحبه الجني ، حتى خلطه بأهله وولده ، فأحب الشاعر بنت الجني وهام بها وجن بها جنوناً ، وكان يزعم أنها تتراءى له في الهواء ، ويسكن اليها في الهواء ، وفيها يقول :

لابنة الجني في الجو طلالْ دارس الآيات عافٍ كالخللْ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهكذا نجد لكل شاعر شيطاناً يلقنه ، وكل شاعر يزعم أن شيطانه أقوى من شيطان غيره ، ولهم في ذلك أقوال منها :

وإني وكل شاعرٍ من البشرْ شيطانه أنثى وشيطاني ذكرْ

* * *

إني وإن كنت صغير السنّ وكان في العين نبُوٌّ عني
فإن شيطاني كبير الجنّ يذهب بي في الشعر كل فنّ

* * *

ولي صاحب من بني الشيصبان فطوراً أقول وطوراً هُوَه

* * *

ونزا على شيطانه شيطاني

وهذا شأن العرب اذا أعجبوا بشيء نسبوه الى الجن :

وقد كان أرباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجنّ

* * *

وعلى ما استجد من المعاني فقد حافظ الشعر الأموي على كثير من خصائص الشعر الجاهلي ، وظل سالكاً طريق الشعر الجاهلي في الوزن والقافية ، ولكن الأراجيز طالت وكثرت ، ونبغ من الشعراء من قصر شعره عليها ، فسموا الرجاز ؛ كأبي النجم العجلي والعجّاج وابنه رؤبة ؛ ولا يفسر ذلك إلاّ بامتداد بحور الشعر ، لأن الاختصاص دليل على تعاظم الأصل وفرعه .

وكما حافظوا على الوزن والقافية ، حافظوا على النسيب في مطالع القصائد سواء أكانت في المدح أم في الفخر أم في الهجاء ، يستجيشون بذلك قرائحهم ، ويستوحون عرائس الشعر ويغنونها ، ويروضون القول ونفوس السامعين ويسحرونها ، ويهيئونها لقبول ما سيرد عليها بعد النسيب من مدح أو فخر أو هجاء أو غير ذلك من الأغراض ، وكأنهم يرمزون بذلك الى أولية الشعر العربي الذي وصل الينا غنائياً ، وظل الغناء فاتحة لأكثر أنواعه ، حتى أغرب ابن مقبل فلم يخل منه إحدى قصائده في الرثاء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأعظم خصائص الشعر في العصر الأموي الاعتماد على الطبع وكراهة الكلفة ، إذ يشعر القاريء بتدفق الطبع ، وميامرة القول ، واجتناب الاقتسار ، والفرار من الكلفة التي كرهها العرب في كل شيء ؛ فقد كانوا يرسلون القول إرسالاً ، ولا يطيلون النظر في أعقاب قوافيهم ، ويعجبهم السمح السهل ، ويسمون من يتنوقون في شعرهم ، ويطيلون النظر في أعقاب قوافيهم ، ويعيرونها فضل تفكر وتدبر ، عبيد الشعر . ومن أمثلة شعرهم المطبوع قول ابن أبي أذينة :

إن التي زعمتْ فؤادك مَلَّها ... خُلقتْ هواك كما خُلقتَ هوىً لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها ... بلباقةٍ فأدقَّها وأجلَّها
وإذا سمتْ لها وساوس سلوة ... شفع الضميرُ الى الفؤاد فسلَّيا
منعت تحيتها فقلتُ لصاحبي ... ما كان أكثرها لنا وأقلَّها
فدنا وقال لعلَّها معذورةٌ ... من أجل رقبتها فقلتُ لعلَّها

والخاصة الثانية : البيان بمعناه اللغوي أي الظهور والوضوح ، فقد كانوا يكرهون التعمق والتعقيد والتقعر ، ولا يتكلفون الصنعة ، ولا يدورون ولا يلفون ، بل يسلكون الى المعنى أوضح السبل ، ويجلونه بأظهر بيان ؛ وما ورد في شعرهم من أحكام الصنعة فبقدر طبيعي وغير مجتلب ولا متقسر ولا مقصود ، وقد تمر بالأبيات من شعرهم ، فلا تكاد تجد نوعاً من أنواع الصنعة التي أغرى بها من جاء بعدهم من المحدثين . قال الفرزدق :

اذا متُّ فابكيني بما أنا أهله ... فكل جميلٍ قلتِ فيَّ يُصدَّقُ
وكم قائلٍ مات الفرزدق والندى ... وقائلةٍ مات الندى والفرزدق

وقال جرير وقد اشترى من آل زبدٍ أمةً فأنكرت خشونة عيشه وكبر سنه :

تكلفني معيشة آل زبدٍ ... ومن لي بالمرقَّق[1] والصِّناب
وقالت لا تضم كضم زبدٍ ... وما ضمي وليس معي شبابي

(١) المرقق : الخبز المنبسط الرقيق . والصِّناب : إدام يتخذ من الخردل والزبيب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن خصائص شعراء ذلك العصر : الاستسلام الى العاطفة أو الشعور ، والاقتصاد في الخيال . والترجمة عن الشعور من أوضح عناصر الشعر العربي ، واشتقاق كلمة الشعر عند العرب دليل على ذلك لأنها مشتقة من الشعور ، وليست كذلك عند غيرهم . والعربي بفطرته سريع التأثر عصبي المزاج مرهف الحس ، والشاعر عادةً أرهف حساً وأعمق شعوراً ، ولقد قالوا : إنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره . ولئن خص شعر الفرس مثلاً بسعة الخيال والإبداع . فلقد خص شعر العرب بصدق الشعور وعمقه وإرهافه . ومقياس الإحسان عندهم قول الشاعر :

وإن أحسن بيتٍ أنت قائله بيتٌ يقال إذا أنشدته صدقا

والصدق هنا هو صدق الشعور . فالشاعر العربي مستسلم الى شعوره مقتصد في خياله ، وليس هنا محل المفاضلة بين هاتين المزيتين ـ مزية الشعور ومزية الخيال ـ وإنما ملاك الأمر الإحسان في هذه أو تلك . وأي إحسان في تصوير الشعور فوق قول صاحب ليلى :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّلُ لي ليلى بكل سبيلِ

وقول الآخر :

أآخر شيء أنت في كل عجمةٍ وأول شيء أنت عند هبوبي

* * *

وما زرتكم عمداً ولكن ذا الهوى إلى حيث يهوي القلب تهوي به الرجلُ

* * *

وقد كنت آتيكم بعلة غيركم فأفنيت عِلاّتي فكيف أقولُ

* * *

بينما نحن بالبلاكث فالقا ع سراعًا والعيس تهوي هويا
خطرت خطرةٌ على القلب من ذكـــــراك وهنًا فما استطعتُ مضيا
قلتُ ليبكِ إذ دعاني لك الشو ق وللحادبين رُدّا المطيا

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وليس في هذه الأمثلة إبداع في الخيال ، ولكن فيها عاطفةً مشبوبة وشعوراً حاراً يتلظى ويكاد يحرق بعضه بعضاً .

ولقد خص الشعر العربي ـ والشعر في العصر الأموي يمثله أصدق تمثيل ـ بالإيجاز ، ولهم في ذلك آيات ، ولعل عنايتهم بالإيجاز حالت بينهم وبين الإطالة في موضوع واحد ، فبرزت القصيدة الواحدة تتضمن عدة موضوعات ، وكأنهم اجتزأوا بوحدة الوزن والقافية في القصيدة الواحدة عن وحدة الموضوع ، ولم يروا بأساً بتداعي الأفكار ، فكانت وحدة المعنى عندهم في البيت لا في القصيدة . ومن ايجازهم الحسن قول القطامي :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبلُ

وقول جرير :

إن الذي حرم المكارم تغلباً جعل الخلافة والنبوة فينا

وقول الآخر يصف سهماً :

« غادر داءً ونجا صحيحا »

ومن خصائص الشعر في ذاك العصر : جزالة اللغة وحلاوتها ، فالشعر الأموي بجملته جزل فخم رصين ، يملأ فم المنشد وسمع السامع ، ويندر فيه اللين المتفكك كالذي أخذ على ابن قيس الرقيات وعمر بن أبي ربيعة والوليد ابن يزيد في بعض شعرهم ، وكلهم حضريون غزلون يكثرون من معاشرة النساء والإماء . وقد فرقوا كثيراً بين الجزالة الحلوة وبين الوعورة والتقعر ، ولم يغضب الفرزدق لما قيل عنه في شعره « ينحت من صخر » بل حمل ذلك على القوة والجزالة :

ترى الناس ماسرنا يسيرون حولنا فإن نحن أومأنا الى الناس وقّفوا

من هذه العناصر الخمسة : « الطبع والبيان والشعور والإيجاز والجزالة »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يتألف فنهم في الشعر ، وقد يكون بعض هذه العناصر أظهر من بعض في القصيدة ، والأبيات التي تجمعها كلها تبلغ الغاية ، قال ابن الدمينة :

ألا يا صبا نجدٍ متى هجتِ من نجدِ ... لقد زادني مسراك وجداً على وجدِ
أأنْ هتفتْ ورقاءُ في رونق الضحى ... على فننٍ غضِّ النبات من الرند
بكيتَ كما يبكي الوليد ولم تكن ... جليداً وأبديت الذي لم تكن تبدي

اجتمعت في هذه الأبيات جميع ما ذكر من خصائص فنهم ، فالطبع الشعري يتدفق تدفقاً وينسجم انسجاماً ، والبيان وضّاءٌ وضّاحٌ كفلق الصبح ، أما العاطفة فمشبوبة وثّابة ، وأما الايجاز فقد بلغ الغاية لما صوّر ببيت واحد صورة بألوانها وظلالها تتحرك وتنطق ، جمع أروع ما في الطبيعة من مواكب الجمال في قوله « في رونق الضحى » وجعل هذه الورقاء تهتف في ذلك الرونق « على فننٍ غض النبات » ولماذا ؟ لأن الفصن الغض فضلاً عن حسن منظره يترنح إذا وقعت عليه الورقاء أو دارت أو اهتزت ، فيكون أجمل منظراً وأوفر حياةً ، وجعله من الرند والرند أطيب أشجارهم . والجزالة الحلوة في هذه الأبيات يحسها السمع والذوق .

ومن الشواهد التي يتجلى فيها فنهم الشعري قول نصيب :

كأنّ القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراحُ
قطاة عزّها شركٌ فباتتْ ... تجاذبه وقد علق الجناحُ
لها فرخان قد تركا بوكرٍ ... فعشها تصفقه الرياحُ
إذا سمعا هبوب الريح نصّا ... وقد أودى به القدر المتاح
فلا في الليل نالت ما ترجي ... ولا في الصبح كان لها براح

وقول عدي بن الرقاع في حماري وحش :

يتعاوران من الغبار ملاءةً ... غبراء محكمةً هما نسجاها
تطوى إذا علوا مكاناً جاسياً ... وإذا السنابك أسهلتْ نشراها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقول أعرابي :

سقى العلم الفرد الذي في ظلاله غزالان مكحولان مؤتلفانِ
أرغتهما خِلاً فلم أستطعهما ورميًا ففاتاني وقد رمياني

* * *

وللدين والسياسة والفتوح آثار بينة في الشعر الأموي ، وربما كان أعظم أثر لنواهي الإسلام في الشعر ، خلوه من الخمر ووصفها ، فبعد أن كان الجاهليون يتمدحون بشربها ، صار جرير يهجو الأخطل بتعاطيها .

ياذا الغباوة إن بشراً قد قضى أن لا تجوز حكومة النشوانِ

والشعراء الغزلون في ذلك العصر كعمر بن أبي ربيعة وذي الرمة وكثير عزة وجميل بثينة والعرجي وابن أبي عتيق لم يصفوا الخمر ، ولولا الأخطل - وهو غير مسلم - والوليد بن يزيد في آخر العصر الأموي لما كان للخمر ذكر في الشعر الأموي .

ونجد في الغزل - ولا سيما البدوي منه - عفة لم تكن معهودة من قبل :

لولا الحياء وأن رأسي قد عسا فيه المشيب لزرت أم القاسمِ

ونلقي في بعض الأحيان تحرجًا أشبه بتحرج الزهاد :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلامِ .

ونرى في الغزل لوناً دينيًا ترتاح اليه النفس :

لقد بسملتْ ليلى غداة لقيتها فيا بأبي ذاك الغزال المبسملُ

* * *

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلتِ بناسك متعبدِ
قد كان شمَّر للصلاة ثيابه حتى عرضتِ له بباب المسجد
ردي عليه صلاته وصيامه لا تفضحيه بحق دين محمد

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رمتني وستر الله بيني وبينها ونحن بأكناف الحجاز رميمُ
فلو أنني لما رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم

* * *

بيض أوانس ما هممن بريبة كظباء مكة صيدهن حرامُ
يحسبن من لين الكلام رواياً ويصدهن عن الخنا الإسلام

ومن أثر الإسلام في الشعر الأموي ذكر الإيمان والنبي والملائكة وليلة القدر والقرآن وسوره :

يذكرني حم والرمح شاجر فهلاً تلا حم قبل التقدم

والصلاة :

أصلي فما أدري إذا ما ذكرتها أثنتين صليت الضحى أم ثمانيا

والجنة والنار والثواب والعقاب والكفر والإلحاد والنفاق والتوبة وما الى ذلك من الألفاظ الإسلامية . وقصيدة الفرزدق في هجاء إبليس مقتبسة مما ورد عنه في القرآن .

وللسياسة أثر واضح في الشعر الأموي . كان حزب بني أمية أعظم الأحزاب السياسية ، وهو الحزب الحاكم ، وبيده السلطان والقوة ؛ وحزب بني هاشم الحزب المغلوب على أمره ، وحزب عبد الله بن الزبير ، ولم يدم طويلاً بل تشتت بمقتل ابن الزبير ، وحزب الخوارج ، وهو حزب المعارضة الناقم الثائر القوي الشكيمة . ولكل من هذه الأحزاب شعراء ، وإن كان حزب ابن الزبير أقل هذه الأحزاب عدد شعراء لأن رأسه لم يبسط لهم يده بالعطاء . وشعراء الحزب الأموي أكثر من شعراء جميع الأحزاب ، من أشهرهم كعب بن جعيل ومسكين الدارمي والفرزدق وجرير والأخطل وعدي بن الرقاع والنابغة الشيباني وغيرهم ، كانوا دعاة بني أمية يشيدون بأعمالهم وينوهون بمآثرهم ويسفهون أحلام خصومهم ، ويرون أن العرب لا تصلح إلا عليهم :

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك ولا تصلح إلا عليهم العرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حتى إذا ضعضعهم الزمان قال أحد شعرائهم واسمه أبو عطاء السندي :

أليس الله يعلم أن قلبي يحب بني أمية ما استطاعا
وما بي أن يكونوا أهل عدل ولكني رأيت الأمر ضاعا

وشعراء الحزب الهاشمي يتميز شعرهم بنشيج المحزون وغيظ الموتور وكمد المغلوب وأسف المقهور ، وفيه شجو ورقة وحنين وحزن وكآبة ، من أشهرهم أبو الأسود الدؤلي والكميت بن زيد الأسدي .

وشعراء الخوارج فرسان أبطال ، وشعرهم شعر القوة والبطولة والإيمان الثابت ، يلحقون الموت وهو يفر منهم ، كانت إحدى نسائهم ترتجز في الحرب وتقول :

أحمل رأسًا قد شمتُ حملَهْ وقد شمت دهنه وغسلَهْ
هل من فتى يحمل عني ثقلَهْ

ويصف أحد شعرائهم صريعًا منهم بقوله :

يهوي وترفعه الرماح كأنه شلوٌ تنشب في مخالب ضاري
فثوى صريعًا والرماح تنوشه ان الشراة قصيرة الأعمار

وللفتوح أثر في الشعر الأموي ، وقد فتحت الأقطار المناخمة للجزيرة العربية كالشام والعراق ومصر قبل الدولة الأموية فما قيل في تلك الفتوح لا يدخل في بحثنا . وتمَّ فتح ما وراء تلك الأقطار في الدولة الأموية ، والفتن في الداخل لا تكاد تهدأ ، فكان هم الشعراء في هذه الفتن التي يشاهدونها صارفًا لهم عن إعطاء الفتوح ما تستحق من العناية . على أن منهم من كان يرافق بعض جيوش الفتوح ويتغنى بما يفتح الله عليها ويصنع لها ، مثل كعب الأشقر الذي رافق المهلب بن أبي صفرة في حروبه . ومن أثر الفتوح قول كعب بن جميل لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد :

أبوك الذي قاد الجيوش مغرِّبًا الى الروم لما أعطت الخرج فارسُ
وما يستوي الجيشان جيش لخالد وجيش عليه في دمشق البرانس

وقد مدح جرير مسلمة بن عبد الملك في غزواته في الروم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبعد أن فتح العرب الشام والعراق وفارس ومصر ورأوا مدنها الزاخرة بالحضارة والعمران ، وما أفاء الله على الفاتحين من غنائم على اختلاف الأنواع ، وزار الشعراء قصور الخلفاء في دمشق ، ظهر في بعض الحواضر شعراء صقلت الحضارة حواشي شعرهم ، وظهر عليه النعيم والترف ، ولا سيما مدن الحجاز ، والشعراء الغزلون في حواضر الحجاز أثر مما ذكر . وقد تديرت فتاة عربية دمشق وأعجبها ما فيها من النعيم والوجود الحسان فقالت :

كهولُ دمشق وشبانها أحب إليَّ من الجاليهْ

وقد ذكر الشعراء قصور الخلفاء والحدائق المحيطة بها ، وقصيدة النابغة الشيباني في وصف الجامع الأموي أثر للحضارة بيّن . وللفرزدق قصيدة غزلية يذكر فيها قصراً شاهقاً تدلى منه من علو ثمانين قامة ، كما يذكر حراس القصر ووصائفه .

وقبل أن أختم هذا البحث أريد أن أشير الى شاعرين عجيبين بين شعراء العصر الأموي كل منهما أمة وحده ، تفردا بأشياء لم تجتمع لغيرهما . الأول : سابق قاضي الرقة لعمر بن عبد العزيز ، فشعره كله مواعظ وحكم وزهد وتقوى وصلاح مستقاة من الدين ، يعظ وينذر ويخوف بالموت والحساب والعذاب في اليوم الآخر ، وكان عمر بن العزيز يجله ويؤثره . والثاني كعب ابن معدان الأشقر شاعر الفتوح بأسلوب قصصي دقيق متتابع ، رافق المهلب ابن أبي صفرة في حروبه ، وكان يصوّر الوقائع تصويراً تاماً متتالياً ، وقد أوفده المهلب الى الحجاج فأنشده قصيدة وصف فيها يوم رام هرمز وأيام سابور وأيام جيرفت أولها :

ياحفصُ إني عداني عنكمُ السفرُ وقد سهرتُ فآذى عينيَ السهرُ

وهي طويلة جداً أشبه بملحمة ، وفيها وصف كامل تام متلاحق ، فاستحسنها الحجاج وقال له : إنك لمصنّف .

خليل مردم بك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net